لغة ، لجماعته أو لغيرها من الجماعات البشرية .

وهذا الصياح مشترك بين جميع الأطفال ، ولا يؤدي ـ في أوله ـ غرضا ولكنه يتطور بعد ذلك ، فيستخدمه الطفل في التعبير العام عن كل ما يهمه وبخاصة عندما يدرك من حوله أثره فيهم .

وهذه الأصوات تدرب عضلاته ، وجهازه الصوتي على الكلام فينتقل إلى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية (البأباة) :

وفيها يصدر الطفل مجموعات من الأصوات مثل أ أ ـ م م ـ ب ب ـ ت ت ـ د د الخ .

وتكون في أولها نشاطا عضليا خالصا ، ثم تأخذ أعضاء النطق عنده شيئا فشيئا في التدرب عليها ، والتحكم فيها فيستطيع الطفل نطق الصوت الذي يريده .

ويأخذ الطفل ـ بعد ذلك ـ في تدريب عضلاته الصوتية على النطق بهذه الأصوات التي يستمتع بها هو ومن حوله .

والشائع أن أول ما ينطقه الطفل صوائت مفردة ، أو صوائت يسبق كلا منها صوامت مثل (لَ ـ رِ ـ تُ الخ) «وتعد الصوائت الشفوية التي يرمز إليها بـ p, b, m (پ ، ب ، م) من الصوامت الأولى التي ينطقها الطفل ، ان لم تكن أولها على الاطلاق» وفي هذه المرحلة ربما صدرت عن الطفل أصوات ليست من مجموع الأبجدية التي تستعملها جماعته مثل (P , v) عند طفل عربي مثلا ، بيد أنه ينطق عددا كبيرا من أصوات أبجدية قومه .

المرحلة الثالثة (الكلام) :

تبدأ من حوالي نهاية السنة الأولى ، وتمتد سنوات طويلة ويمر خلالها بمرحلتين .

ا ـ فترة اللغة الصغيرة :

وفيها يحاول تقليد من حوله ، ويبعد كثيرا عن الأصل الذي يقلده ، كأنْ يقول الطفل المصري (م م) بدلا من (الأكل) (امبو) بدلا من (ميه) و(ب) بدلا من (عيش) مثلا وقد سمعت ابني في تلك المرحلة يقول (مكّن) بدلا من (مطبخ) .

ب ـ فترة اللغة المشتركة :

وفيها ينظم كلامه كثيرا ، ويظل وقتا طويلا حتّى يصير كلامه مثل الكبار .

ولاشك أن الطفل في تلك المرحلة يحرف كثيرا من الكلمات ويتصرف فيها حسب قوانينه الصوتية .

فيقول مثلا (ستينه) مكان (سكينه) و(تتاب) مكان (كتاب) .

وقد لاحظت أن ابني في أول هذه المرحلة ـ يميل إلى قلب بعض الكلمات فيقول (تعبل) مكان (ثعلب) ...

وبعض الأصوات اللغوية قد يخفَى على الطفل ، أو يظل صعب النطق لا يتقنه إلا في مرحلة متأخرة كصوت الراء أو السين في بعض الأحيان .

وكثيرا ما يكتفي الطفل ببعض مقاطع الكلمة ، عن نطقها كاملة فقد سمعت ابني يقول (كب) مكان (كلب) و(بايه) مكان (كباية) ونحوها .

ويستطيع الطفل في هذه المرحلة أن يميز الكلام الذي يوجه إليه بحب وعطف من ذلك الذي يوجه إليه بحدة ، وغضب ، فيسر من الأول وينفر من الثاني .

والطفل لا يتعلم الأصوات مفردة ، وإنما يتعلم الجانب الصوتي للكلمات مرتبطا بالمعاني .

وعادة ما يدرك معاني الكلمات التي تلقَى عليه قبل أن يستطيع نطقها بزمن طويل ، وهو يدرك المحسوسات قبل المعنويات .

وأخيرا يتعلم لغة جماعته بقدرته الفائقة على تقليد ما يلقَى عليه من قبل أمه وأبيه وأسرته والمحيطين به ،

وينفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية شيئا فشيئا .

وللطفل قياسه اللغوي في النواحي الصوتية والنحوية ، والمعنوية ، ومن ذلك التذكير والتأنيث ، فقد يتسرب إلى ذهنه أن المؤنث يكون بالتاء ـ كما هو العادة الشائعة ـ . فيطبق ذلك على بعض الكلمات التي لا تؤنث بالتاء وفق قواعد اللغة الصحيحة ، فإذا أراد تأنيث (أخضر) مثلا قال : (أخضرة) و(أحمر) قال (أحمرة) .

وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الأطفال الذين ينتمون إلى جماعته الكلامية وان كانت ثمة أخطاء عامة يشتركون فيها جميعا[27] .

وإذا كان الطفل يتلقى اللغة عن مخالطيه فهل لاخطائه أثر في أصوات اللغة ؟ وهل للأفراد ـ بصفة عامة ـ صغارا أو كبارا تأثير فيها ؟.

وللإجابة على هذا السؤال نقول :

يختلف الباحثون في نسبة التغير الصوتي إلى الأفراد .

فينفي (جوشات) أن يكون للطفل أي أثر في التطور الصوتي للغة فهو يقول : «ان كل لغة تتهيأ تهيأ خاصا بين جيل وجيل يمكن للتطور في أصواتها ، وبذلك يخضع أبناء الجيل اللاحق من الراشدين ـ دون الأطفال ـ للتطور الجديد ، وليست الطفولة سوى مرحلة تقليد لغوي ولا أكثر . وعندما يخطئ الطفل في نطق بعض الكلمات فليس ذلك بدء التطور في أصوات اللغة التي يتكلمها كما يزعم بعض الباحثين . وذلك لأن طبيعة اللغة كفيلة بتصحيح هذا الخطأ فيما بعد . ويتم ذلك عندما يكتمل نضوج الأعضاء الصوتية لدى الطفل وتتكيف طريقة سلوكها بصفة نهائية عند نطق مختلف الأصوات وهذا لا يتم قبل بلوغ الطفل سنا مناسبة ، أي عندما يتجاوز دور الطفولة»[28] .

وينفي جوشات ـ كذلك ـ أن يكون للفرد ـ صغيرا أو كبيرا ـ أي أثر في التطور الصوتي فيقول : «ليس للفرد أي دخل في التطور الصوتي» وقد اعتمد في حكمه هذا على النتائج التي توصل إليها في بحث تتبع فيه الفروق الصوتية بين أفراد الجماعة اللغوية التي تقيم في المنطقة الفرنسية من سويسرا المجاورة لمدينة (بولّ) Bulle في مقاطعة فريبورج لبيان تأثير الفرد في اللغة ، وكانت تلك المنطقة معزولة تماما عن المناطق الأخرى المجاورة لها .

وقد اكتشف جوشات فروقا كبيرة في طريقة النطق بين أبناء الجزء الأول من هذه المنطقة ، ولما انتقل إلى جزء آخر يبعد عن الجزء الأول مسافة ثلاثة أميال وجد فروقا صوتية بين أفراده تماثل الفروق التي وجدها بين أفراد الجزء الأول . وكذلك كان الحال في الجزء الذي يليه ، والذي يليه .

وقد خرج جوشات من ذلك بأن الفروق ليست فروقا مكانية بمعنى أن اللغة في جزء ما من الاقليم تختلف عنها في جزء آخر . بل انها كانت فروقا زمنية ، أي فروقا بين جيل وجيل . وأن الاختلاف اللغوي بين أبناء جيلين مختلفين في جزء واحد أكثر مما بين أبناء جيل واحد ، في جزءين مختلفين .

وبين أن المقارنة بين لغتي اثنين من الشيوخ ـ ينتمي أحدهما لجزء من هذا الأقليم يختلف عن الجزء الذي ينتمي إليه الآخر ـ تثبت تحقق التشابه في مخارج الحروف لديهما أكثر مما بين أحدهما ، وبين شباب الجزء الذي ينتمي إليه ولهذا قسم جوشات السكان ثلاثة أقسام .

1) المعمرون :

وهم بين الستين والتسعين ، وهؤلاء ينطقون الكلمات بطريقة قديمة كثيرا ما تبدو غريبة لسواهم .

---

(27) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 34 ـ 54 ، د. وافي : علم اللغة ط 4 ص 110 ـ 155 ، د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 68 ، 69 وكندراتوف : أصوات واشارات ص 190 ـ 193 .

(28) جسبرسن اللغة بين الفرد والمجتمع ص 45 .

2) المحدثـون :

وهم دون الثلاثين ، وهؤلاء ينطقون ألفاظهم بطريقة حديثة .

3) المتوسطـون :

وهم بين الثلاثين والستين ، وهؤلاء يكوّنون في نطقهم حدا أوسط بين المعمرين والمحدثين ، ولقد لاحظ جوشات أن هؤلاء يستعملون الأصوات القديمة إلى جانب الأصوات الحديثة دون أن يكون لهم في اختيار هذا أو ذاك قاعدة خاصة ، كما لاحظ أنهم يلتزمون في بعض الكلمات طريقة النطق الحديث ، وفي بعضها الآخر طريقة النطق القديم .

أما النساء فقد كن أكثر ميلا لاتباع طريقة النطق الحديث ، وقد حدا هذا بجوشات أن يقرر أن دور المرأة في التطور الصوتي أكبر خطراً من دور الرجل .

وقد أثبت جوشات أن الفرد ليس له أثر في التطور الصوتي ، بعد دراسة ما يبلغ خمسين لغة فردية لابناء هذه المنطقة لم يتبين له من خلالها مثل هذا التأثير الفردي في تطور اللغة التي يتكلمها أبناء هذه الجماعة اللغوية .

وينسب جوشات التغير الصوتي إلى الجماعة لا إلى الأفراد فيقول ان التغير أمر حتمي طبيعي وليس أمرا خاضعا لارادة فرد متميز أو غير متميز ، ومعنَى أنه أمر حتمي طبيعي أن يحدث لأول مرة بصفة غير فردية وذلك بأن ينطق النطق الجديد شخص في مكان ما ثم يقلّد وينطقه في نفس الوقت شخص ثان في مكان ثان ، وثالث ورابع في مكانين ثالث ورابع ، ثم يقلدون وهكذا[29] .

ويتفق فندريس مع جوشات في هذه الوجهة التي تمنع أثر الفرد في الأصوات فيقول : «ساد شطرا طويلا من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتي انما يصدر عن الفرد ، وأنه لم يكن إلا تغيرا فرديا ، ثم عمم ، وهذا ادراك للأشياء غير صحيح ، فليس في وسع أي فرد أن يفرض على جيرانه نطقا تنبو عنه فطرتهم ، وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغير صوتي ، فلأجل أن يصير تغير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية يجب أن يكون لدَى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعي لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، بل ان سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شيء ، فإن النطق الشاذ لا يجلب اتباعا لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام إلا السخرية منه»[30] .

ويرَى جسبرسن أن نفي التأثير الصوتي للأفراد غير مسلم به ، وأن البحث الذي أجراه جوشات يؤكد تدخل الفرد في التطور الصوتي ، فقد لاحظ جوشات من بحثه اختلاف النطق ، ووجود الفروق بين مختلف المناطق والأشخاص على مختلف الأعمار ، وهذا وحده كاف لاثبات أثر الفرد في الأصوات[31] .

ولعل الدافع إلى انكار أثر الفرد في التطور الصوتي هو الجهل بنشأة التطورات الصوتية ، ولذا يقول فندريس «ان العالم اللغوي لا يعرف إلى أي مدى يحدد دراسته وإلى أنه يبقَى مترددا بين الاعتبار الفردي والاعتبار الجنسي بأسره»[32] ويقول الدكتور تمام (بالرغم من معرفة تاريخ بعض التغيرات الصوتية معرفة عامة لا يستطيع الانسان أن يقول عند أي حد معين بدأ هذا التغير ، ولا نستطيع حتَّى أن نفطن إلى التغيرات التي تأخذ مجراها الآن على غير وعي منا ، ولا نستطيع كذلك أن نقرر ما إذا كان تغير ما قد بدأ فرديا ثم اتسع مدَى تطبيقه ، أو أنه بدأ على ألسنة ناسَ مختلفين ، ولا يستطاع نسبته إلى فرد معين منهم[33] .

والحقيقة التي لا يمكن انكارها أن التطور الصوتي

(29) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 37 ، 38 .
(30) فندريس : اللغة ص 69 .
(31) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 37 — 44 .
(32) فندريس : اللغة ص 296 .
(33) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 94 .

يعود في بعض نواحيه إلى الافراد ، وان لم يتعين الفرد الذي تابعه غيره ، فمن الحق الذي لا ريب فيه —كما يقول فندريس— أن كل فرد يدخل في اللغة جزءا من التجديد خاصا به»[34] .

ومن المسلم به «أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفترق ، واللغة محدودة بحدود الفرد عند العالم الصوتي»[35] و«أن الفرد كما يقول الدكتور تمام حين ينفرد بنطق خاص يظل خلفه من بعده يبعد شيئا فشيئا عن نطق المجموع حتّى يختلف عنه»[36] .

قد شك أن عملية التغيير تحدث من فرد أو جملة أفراد ، ثم تنتقل منهم حتّى تعمم ، فالجانب الفردي ملاحظ فيها ، ولا يمكن حتّى لمن ينسب التغيير إلى الجماعة أن ينفيه مطلقا[37] .

2 — أثر الفرد في المفردات والتراكيب :

أما أثر الفرد في المفردات والتراكيب فهو واقع لغوي يعترف به الباحثون فالطفل يسمع مفردات جديدة ، وتعبيرات جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة ، ان الصبي في المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسنا وتجربة ، فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه ، كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسمع من أولاد نظراء أهله — ولو كانوا مثله سنا كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه وأمه أو اخوته ، وسائر من اتصل بهم من قبل[38] .

ومن الممكن أن يبتكر الفرد لفظا من الألفاظ —كما يحدث في المجامع اللغوية— أو أن يرتكب خطأ في نطق كلمة أو تركيب جملة ثم يؤخذ عنه ويشيع ، وليس اشتراط شيوع الابتكار الفردي في اللغة مغيرا للأمر الواقع الذي هو أن الفرد وليست الجماعة هو السبب في التغير اللغوي[39] .

وهناك ألفاظ لا تكون معروفة إلا في محيط الأسرة .

ومما يبتكره الفرد في مجال اللغة ، نقل الألفاظ إلى معان جديدة ، ويشترط علماء اللغة وجود العلاقة المسوغة لهذا الانتقال على ما هو معروف في أسلوب المجاز .

وقد ينقل الفرد أو الأسرة بعض الألفاظ إلى معان خاصة ، لا توجد عند غيرهم كاستعمال (فرعون) أو الطاغوت اسما لوالد مستبد ، و(القط) لطفل مدلل في

(34) فندريس : اللغة ص 295 ، 296 .
(35) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص 92 .
(36) نفس المرجع السابق ص 92 .
(37) في العربية الفصحى أصوات تحتاج إلى دقة الأداء ويتخلص منها بعض الناطقين كصوت القاف الذي تحول على لسان غير المثقفين بالعربية إلى (كاف) والذال تحولت في العامية إلى زاي أو دال وهكذا ، وبعض الظواهر اللغوية تؤدي إلى التطور الصوتي ، فظاهرة التفخيم أدت — مخالفة للفصحى — إلى نطق كلمة (دَرْب) : (ضرب) — في العامية — بتحويل (الدال إلى ضاد) .
(38) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 57 . وانظر : جسبرسن — اللغة بين الفرد والمجتمع ص 53 — وقد اثبتت التجارب أن الاطفال يخترعون بعض الألفاظ والصيغ ونحن نسمع منهم كثيرا يرتجلون كلمات مركبة من حروف عدة .
انظر : د. أنيس : من أسرار اللغة ط 3 ص 87 — 89 وأحمد الاسكندري : فقه اللغة ص 30 .
(39) وقد اعترف علماء اللغة بوقوع الارتجال في اللغة العربية ، فالعربي الفصيح كان يخترع ألفاظا ويشتق أخرى أو يقيسها متبعا طرق التجديد في ذلك ، ويروى عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ولا سبقا إليها .
والباحث في العربية يعثر في بعض مصنفاتها على كلمات وصفت بالاختراع فقيل عنها أنها مصنوعة . وقد أورد السيوطي في المزهر عددا من تلك الكلمات غير منسوبة ووصفها بالاختراع والصنعة ، وقد روي في بعض مراجع اللغة والأدب ما يدل على أن أحد الشعراء أو الكتاب قد يرتجل كلمة أو كلمتين تفكها وتظرفا ..
وفي كتب النحاة ما يرشدنا إلى اعترافهم بالارتجال في أثناء حديثهم عن العلم وتقسيمه إلى منقول ومرتجل .
وفي العامية كثير من الألفاظ التي لا أصل لها في اللغة الفصحى أو اللغات الأجنبية وهي ترجع إلى اختراع الأفراد والجماعات ، وذكر الدكتور ابراهيم أنيس أنهم كانوا يقولون — على سبيل الاختراع — وهم طلبة مثل :

الأسرة و(شعبه) لطفل بغية أن يعيش، وغير ذلك مما يستعمل في نطاق محدود. وهو نوع من ابتكار المعاني ونقل استعمالات الألفاظ.

والفرد ــ حال ابتكاره للمفردات أو الأساليب ــ مقيد بالعرف اللغوي المتعلق بالدلالة، وقد أشرنا في حديثنا عن الدلالة إلى أن مخالفة الأساليب العربية يزيد من صعوبة المعنى[٤٥] ولو نطقنا ــ في العامية ــ (قلم أحمد على معاه) بدل (عال معاه قلم أحمد) لثار شعور السامعين لمخالفة العرف اللغوي.

ولذا يشترط في ابتكار الفرد عنصر الأفهام لدى الجماعة اللغوية. اللهم إلا في لغة الطفل أو (رغائه) فإنها تفقد هذا العنصر. وكذلك محاولة ارسال بعض الأصوات لمجرد اللهو والهوى. وفيما عدا ذلك يجب أن يتبع الفرد في كلامه الاصطلاحات اللغوية العامة[٤٥].

وهم عشر العقلمين. تفنطحت سلفا قناه كبز فرع القنظل

انظر: ابن جني: الخصائص 2 / 21 ــ 28 ومواضع أخرى منها 3 / 298. والسيوطي: المزهر 1 / 52 ــ 56، 63 ــ 67، 90 وغيرها. والأصفهاني: الأغاني 3 / 62 والمسعودي: وبروج الذهب 4 / 43 والاشموني 1 / 131، د. أنيس: من أسرار اللغة ط 3 ص 90 ــ 92.

(40) جسبرسن: اللغة بين الفرد والمجتمع ص 23، 43.

آثار المجتمع في اللغة

1 – اللغة والجنس :

كتبت بعض البحوث في (علم اللغة العام) عن العلاقة بين اللغة والجنس ، فرأى بعض الباحثين أن اللغة تختلف من حيث بنيتها ونظمها ، ومجاراتها للحياة والأحداث ، باختلاف المتكلمين بها ، من الشعوب ، حسب طبيعتهم الجسمية ، فلغات مجعدي الشعر تختلف عن لغات ملس الشعر[1] ولغات مستطيلي الرؤوس غير لغات مستديري الرؤوس[2] .

وقد استغل هذه النظرية أصحاب المذاهب السياسية ، ودعاة الاستعمار والغزو فتحدثوا عن طبيعة اللغات ، وفرقوا بين اللغات الهندية الأوربية واللغات السامية والحامية ، وادعى الغزاة – وهم من أرباب اللغات الأولى كالألمان ، والطليان – أنهم شعوب راقية ، وأن متحدثي اللغات الأخرى شعوب متخلفة ، ينبغي أن يخضعوا لسيطرة الأرقى .

وارتبط بذلك الحديث عن طبيعة اللغات المتخلفة ، فهي تعجز عن التعبير عن المعاني الكلية ، وينعقد فيها النظم ، وتفتقد منها الحيوية ، وهي لغات قاصرة عن التعبير عن متطلبات الحياة الراقية ، والأحداث العصرية ، ولا يمكن لها في أي وقت أن تتطور إلى الحد الذي وصلت إليه اللغات الأوربية الراقية .

وقد سرى الاعتقاد – كذلك – بين بعض الباحثين بأن اللغات ترتبط بعقلية أصحابها ، فاللغات الراقية ترتبط بعقليات الأمم الراقية ، والعكس صحيح .

فيرى العالم اللغوي الألماني ف . ن فنك F.N. Finck انه لا يجب علينا أن ننظر إلى اللغات الا بوصفها آثارا معبرة عن عقل الشعوب ، وأن اللغات ليست إلا تصويرات لا تقدم أمام عين العالم السيكولوجي أية حقيقة واقعية ملموسة ، وأن من الخداع لأنفسنا أن ندرسها على أنها حقائق واقعة ، فيجب أن نطبق عليها طريقة ذاتية محضة ، بألا نبدأ من اللغة التي ليست إلا نتيجة ، بل من العقل الذي يخلق اللغة[3] .

وقالوا : ان وجود الأقسام الاسمية تشير إلى عقلية (بدائية) كما في لغات البانتو[4] .

والحقيقة أن ربط اللغة بالجنس ، وبالعقلية ، تحتم لا مسوغ له ، فليس في لون العينين ، أو البشرة ، أو شكل الجمجمة أي دليل على شكل أو طبيعة اللغة ، وحتى في حال المقارنة بين الزنجي والأبيض لا نجد أي دليل على أن لون البشرة أو شكل الشفتين يقابله دماغ خاص ينتج تفكيرا مختلفا عن تفكيرنا[5] .

وعلماء الانثروبولوجيا يمكنهم عند العثور على جماجم آدمية أن يحددوا أنواعها ، المستطيل منها والمستدير ، ولكن لا يمكنهم معرفة لغات أصحابها[6] لأن وجود الجمجمة بين أيدينا لا يستطيع بحال أن يعرفنا شيئا عن

(1) فندريس : اللغة ص 297 .
(2) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 65 .
(3) فندريس : اللغة ص 299 .
(4) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 14 .
(5) فندريس : اللغة ص 298 .
(6) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 68 .

أنواع الترابط بين الكلمات والأفكار ، التي كانت تتكون فيها ، ولا عن الصور الكلامية التي كانت تنشأ في مراكزها المخية[7] .

ولا نستطيع أن نقول بوجود روابط ضرورية بين هاتين الفكرتين إذ لا ينبغي الخلط بين المميزات الجنسية المختلفة التي لا يمكن تحصيلها إلا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التي تعد أعيانا قابلة للنقل ، تعار وتتبادل»[8] .

ومن التحكم أن نعتبر اللغة وليدة العقلية ، أو العقلية وليدة اللغة ، لأن كلتيهما وليدة الظروف ، ونتاج الثقافة والمدنية[9] .

ومن الصحيح أن نقول : ان للغة صلة بالعقلية ، إذ من الجائز أن تكون اللغة والعقلية نتاجا لأسباب واحدة ، وأن تكون المميزات التي تميزها واحدة ، دون أن يترتب على ذلك صدور احداهما عن الأخرى[9] .

واللغة — في بعض الأحيان — تستطيع أن تعدل من العقلية ، وتنظمها فعادة وضع العقل في مكان بعينه دائما يمكن أن تؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال ، والتفكير الفرنسي ، أو الألماني ، أو الانجليزي خاضع للغة إلى حد ما ، فإن اللغة إذا كان مرنة خفيفة مقتصرة على الحد الأدنى من القواعد النحوية سمحت للفكرة بالظهور في وضوح تام ، وأتاحت لها حرية الحركة ، وعلى العكس من ذلك تختنق الفكرة من التضييق الذي يصيبها من لغة جامدة ثقيلة ، ولكن عقلية المتكلمين تتصرف لتعتاد أي شكل من أشكال اللغة»[10] .

ومن الثابت أن بنية أية لغة من اللغات ذات علاقة بعقلية المتكلمين بها ، وبنظمهم ، وبحضاراتهم المادية[11] .

ولكن ليس من المؤكد أن الأسباب التي تؤثر على اللغة تحدث في العقلية آثارا مماثلة[12] .

والواقع يناقض هذا الربط ويعارضه ، فخريطة أوربا اللغوية في العصر الحاضر تضم أخلاطا من الأجناس .

ومع هذا فإن فردا ينشأ لدى شعب غير شعبه يكتسب لغته ، وإذا أراد تعلم لغة شعبه الأصلي احتاج إلى مران طويل ، وتدريب شاق شأنه في ذلك شأن أي أجنبي يريد تعلمها ، فالزنجي أو الياباني الذي يربى في فرنسا في ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها ، ولو أن طفلا فرنسيا تربّى في بيئة الزنجي أو الياباني لتكلم لغة البيئة التي نشأ فيها[13] .

وان بعض اللغات التي كتب لها الذيوع والانتشار لتؤكد بطلان هذا الربط فالانجليزية قد انتشرت في مساحات واسعة من الأرض في قارات كثيرة أيام سيطرة الانجليز على تلك الشعوب ، واستعمروها فتكلم كثير منها اللغة الانجليزية وأجادوها ، كأصحابها الأصليين ، وكذلك العربية بعد الفتوحات الاسلامية الواسعة قد فرضت نفسها على شعوب كثيرة ، وأجادوها كأهلها ، دون اعتبار إلى الجنس أو اللون أو العقلية لدى هذه الشعوب المختلفة .

والحديث عن اللغات المتخلفة والراقية حديث غير موضوعي ، فاللغات التي تتسم بسمات (بدائية) يمكن أن تتحول إلى راقية لو انفسح أمامها المجال ، وأتيحت لها ظروف التغير تبعا للتحولات الاجتماعية التي تمر بها الشعوب المتكلمة بها .

(7) فندريس : اللغة ص 376 .
(8) فندريس : اللغة ص 298 .
(9) فندريس : اللغة ص 298 .
(9) نفس المرجع ص 299 .
(10) نفسه ص 302 .
(11) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 65 .
(12) فندريس : اللغة ص 300 .
(13) انظر ص 8 وما أحلنا عليه من كلام فندريس في كتابه (اللغة) .

وقد حكى بعض الباحثين ما حدث لبعض الطلبة الهنود الأمريكيين من امكان تعرفهم على المثل العليا الافلاطونية ، مع خلو لغاتهم من الأسماء العامة التي تستعمل دون (مغير)[14] .

وفي امكان اللغات القاصرة ، أو غيرها ، معالجة كافة العلوم بشرط أن تزود بالمفاهيم والمصطلحات الجديدة .

فلغات الشعوب البدائية تملك اصطلاحات ثقافية قليلة ولكنها لا تقل من حيث تكييف نفسها لكافة المجالات (الحيائية) عن لغاتنا المتحضرة .

فاللغة الأراندية لا تملك مفاهيم مثل (الجبل – التل – النهر) وعلى ذلك تكون لهجة تدريس الجغرافية أمرا صعبا جدا ، ولكن علينا ألا ننسى أن فيها أسماء لكل جبل ، وحتى لأصغر التلول .

ومن السخف التكلم عن اللغات (الأفضل) و(الأسوأ)، ان هذا شبيه بقولنا : أيهما أفضل شجرة النخيل أم شجرة الصنوبر؟ افريقيا أم أوربا ؟ .

فالناس كلهم سواسية ، بغض النظر عن الجنس والثقافة ، والعرق وبنفس الطريقة تتساوى كافة لغات المعمورة في قيمتها وحقوقها[15] .

2 – اللغة والمكان والزمان :

للمكان أثره في اللغة ، فقد لاحظ اللغويون أن لغة سكان الصحراء تختلف عن لغات سكان المناطق الأخرى من سهول ، وأراض زراعية ومدن صناعية .

فلغة الصحراويين خشنة الألفاظ ، غليظة الأصوات ، كما يتضح ذلك في لغة العرب الجاهليين ، فالعربي في الصحراء يجد أمامه الجو الهائل من الفراغ الطبيعي ، الذي يحتاج معه إلى قوة عضلية ، حتى يتضح صوته ، ويصل إلى ما يريد من أماكن قد تكون بعيدة عنه .

والبيئة التي يعيش فيها ، تشكل جسمه ، وعضلات نطقه ، بطريقة تجعلها مستعدة لاخراج مثل تلك الأصوات ، على حين أن سكان المدن يميلون إلى رقة الألفاظ ، وانخفاض الأصوات ، ويتضح ذلك من تأذي النبي ﷺ من سماع أصوات الأعراب العالية حين قدموا عليه في المدينة ، فطالبهم القرآن الكريم بعدم رفع أصواتهم (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض)[16] .

ويكفي أن نسمع – مثلا – كلمة (افرنقعوا) – بمعنى تفرقوا – وقول بعض العرب :

خالي عويف وأبو عليج
المطعمان اللحم بالعشج[17]

وقول بعضهم (لبيش اللهم لبيش)[18] .

فهي تعبر عن صخب الأصوات البدوية ، وهكذا نجد اللهجات المتعددة ، وتنافر الأصوات إلى جانب ما في بعضها من ضعف القواعد النحوية والصرفية ، والاشتقاقية .

وخيال الصحراء محدود بتلك البيئة ، فالوسائل التي يلجأ إليها البدوي لجمال الأسلوب لن تخرج عن مجاله البيئي ، وما يوجد فيه من سماء ، وأرض ، ونبات ، وحيوان .

ويقول النابغة للنعمان بن المنذر :

فانك كالليل الذي هو مدركي
وان خلت أن المنتأى عنك واسع

ويقول له كذلك :

(14) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 71 بتصرف .
(15) كندراتوف : أصوات واشارات ص 83 ، 84 .
(16) من سورة الحجرات الآية
(17) أبو علج : أبو علي – العشج : العشي .
(18) لبيش : لبيك .

كأنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ويصف امرؤ القيس فرسه فيقول :

مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويقول :

فعادى عداء بين ثور ونعجة
دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

ولكن بعد أن تحضر العرب ، وسكنوا المدن لاحظنا تغيرا في طرق التعبير ، وحسن الأصوات ، ونظام القواعد ، فقلت اللهجات ، وبرزت القرشية كلغة عامة بين العرب ، انطمس معها معظم تلك اللهجات ، وسما الخيال العربي ، وانطلق مع تقدم الأمة العربية ، على نحو يمكن معرفته ، من ملاحظة سير اللغة ، وآدابها ، في العصر الاسلامي وما تلاه ، وبخاصة في العصر العباسي ، الذي زاد فيه اتصال العرب بأمم ذوات حضارة ، واكتساب الأدباء والشعراء لكثير من ثقافات تلك الشعوب .

ومع ذلك تظهر ملامح البيئة فيها .

فابن الرومي الذي يعيش في الأحياء الشعبية التي يشاهد فيها صانع الرقاق يجعل ذلك مادة شعره في أبيات هي :

ان أنس لا أنس خبازا مررت به
يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة
في الماء يلقى فيه بالحجر

وحينما يسأل : هل يستطيع أن يأتي بمثل ما أتى به ابن المعتز في وصف القمر من قوله :

انظر إليه كزورق من فضة
قد اثقلته حمولة من عنبر

فيقول : ويحكم ، انما يصف ماعون بيته ...!!

وقد تميزت العربية من أخواتها الساميات ـ كالآرامية ، والعبرية ـ بانتظام القواعد وعذوبة الألفاظ ، وسهولة التراكيب ، لأنها عاشت في بيئة أكثر مدنية من اخواتها[19] .

وللزمان تأثيره في اللغة كذلك ، فالفرد يتأثر نطقه حسب مراحل سنه المختلفة كما ذكرنا[20] .

وانتقال اللغة من جيل يترك أثره في أصوات اللغة ، ومفرداتها ، ونظمها وتراكيبها .

فقد لاحظ جماعة من اللغويين أن أعضاء النطق تختلف من جيل إلى آخر ، فهي عند الأبناء ، تختلف عنها عند الآباء ، وعند الآباء تختلف عن حالها عند الأجداد وهكذا تتطور أعضاء النطق عند الجماعة الواحدة ، من عصر إلى عصر ، وان كان هذا التطور يسير ببطء لكنه يؤثر في ألفاظ اللغة ، وبخاصة في أصواتها .

ونحن نلاحظ أن بعض أصوات اللغة العربية قد تغير على لسان العرب المعاصرين سواء في ذلك لسان المثقفين بالعربية أو على المستوى الشعبي . فالجيم العربية تنطق على لسان بعض المذيعين خالية من التعطيش أو بتعطيش قليل في مصر ، وأما على المستوى الشعبي فقد خلت نهائيا من التعطيش ، على حين أن السوريين يبالغون في تعطيشها ، وقد غدت الثاء قريبة من السين ، والذال قريبة من الزاي على لسان بعض المذيعين وغيرهم من المتحدثين بالفصحى ، على حين انقلبت إليها على لسان العوام ، والصاد والسين والزاي قد اختلف نطقها في الحديث عنه في القديم ، وناهيك بالانحراف الذي يسري على ألسنة

(19) انظر : د. وافي : علم اللغة ط 4 ص 233 – 236
(20) انظر ص 13 من هذا البحث .

العوام لأصوات القاف والطاء ، والظاء والضاد وغيرها مما حدث فيه خلط أو ترقيق .

وماذا نقول عن فقدان الاعراب في العاميات ، وعن تقصير الحركات الطويلة أو حذفها ، واطالة الحركات القصيرة ، أو خلق حركات ما انزل الله بها من سلطان .

وانظر مثلا إلى قول المصريين العوام : جم ــ جه ــ بكام ؟ معاك ؟

ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما يدخله الأدباء والعلماء من ألفاظ وتراكيب كانت قديمة فيحيونها ، أو مستحدثة يبتكرونها ، أو منقولة من اللغات الأخرى للحاجة إليها في ابراز المعنى ، أو في تسمية المستحدثات الصناعية ، أو غير ذلك من الأغراض .

3 ــ اللغة والنظم الاجتماعية :

تتأثر اللغة بالأنظمة الاجتماعية التي تكون عليها الأمة ، فتحمل سمات المجتمع في النواحي السياسية ، والاقتصادية ، والدين . فالمجتمع يطبع خواصه في هذه النواحي على لغته ، فالكلمات ، والتعبيرات تتمشى مع شكل النظام السياسي ، والاقتصادي والديني وغيرها من النظم الاجتماعية .

ففي مجال السياسة نلاحظ اختلاف نظم الأمم ، فهناك النظام الديمقراطي أو النظام الاقطاعي ، أو النظام الشيوعي ، ولكل طريقته التي تظهر في أساليب لغته ، فلغة الانتخاب ، والمراسيم الحكومية ، والمجالس النيابية تتجلى فيها طريقة النظام الذي تسير عليه الدولة .

وعندما يتغير الشكل السياسي تتأثر اللغة به ، فلو درسنا الألفاظ المستعملة في مجال السياسة الطبقية قبل الثورة ، وما استعمل بعد الثورة لوجدنا اختلافا واضحا ، في كل من الفترتين ، فالنظرة إلى الفرد قد اختلفت وأخذ لفظ (السيد) مفهوما جديدا في الاستعمال .

ونلاحظ في أسلوب المعاهدات والمعاملات بين الدول طابع الصورة التي تكون عليها تلك الشعوب ، من النواحي السياسية ، فترد عبارات : (العالم الحر) ــ (عدم الانحياز) ــ (التحالف) ــ (الصداقة) ــ (المودة) وتفسر في ظل المفاهيم السياسية التي تراها الدول التي يجري بينها التعامل .

وقد نشأ عن هذا تغيير مدلولات كثير من الألفاظ والتراكيب ولو درست معانيها في القديم والحديث ــ لاكتشفت فروق هائلة بين المراد قديما ، وحديثا حسب مصطلحات العصر ، وربما أتاح هذا مادة خصبة لمعجمات تضم معاني جديدة لم تعرفها العربية من قبل .

ولنراجع معاهدة العبارات : (الظلم الاجتماعي) ــ (سيطرة الاقطاع) ــ (الخلية الثورية) ــ (الدفع الثوري) ــ (الحوافز الثورية للجماهير) ــ (الدكتاتورية الطبقية) ــ (دموية الصراع الطبقي) ــ (نضال الشعب) الخ .

وللحياة الاقتصادية طرائقها ، ونظمها التي تتخذ من اللغة أداة فعالة لها ، توجهها كما تشاء في الأصوات والمفردات .

فالنواحي الاقتصادية كثيرة ، ومتشعبة ، والتعامل بين الأمم له وسائله ، ودعاياته والتعامل بين أفراد الأمة ، وجماعاتها له وسائله ودعاياته أيضا .

فأسلوب البيع والشراء له مسالكه التي يلجأ إليها كل من البائع والمشتري وطرق عرض السلع ، والاعلان عنها يأخذ أساليب شتّى ، وأسواق البيع والشراء تحوي دهاء البائع والمشتري ، ولذا تبدو في المجال اللغوي للبيع والشراء اصطلاحات ، وألفاظ وطرائق لغوية تتميز بها جماعات التجار على تعدد أنواعهم وسلعهم .

ونشاط أصحاب الحرف زراعية وصناعية وتجارية يرتبط بالمفاهيم اللغوية الجديدة التي تتمشّى مع وصفهم في المجتمع ، فأساليب الزراع ، والصناع ، والتجار تجري حسب ميولهم ، وأهوائهم ، ومصالحهم ، وترتبط بالأوضاع الجديدة التي تعرض لهم .

ويكفي أن نعرف أن العمل ، والعمال زراعيين وصناعيين أصبح لهم بعد الثورة شرف الانتساب إلى

أعمالهم ، وتحولت معاني الكلمات (العمل — العامل — الفلاح) من الصفة التي كانت تلاحقها في الماضي بسخرية واستهزاء إلى شرف المعنى واحترامه[21] .

وللدين كذلك أثره الفعال في اللغة ، فالمجتمع في طقوسه الدينية ، ومشاعره يسلك مسلكا لغويا ذا طابع خاص ، ولغة الدين لها ألفاظها ، وتراكيبها ، وطرائقها التعبيرية ، ولننظر إلى ألفاظ الأذان ، والصلاة ، والخطب الدينية ، وطرائق المدائح النبوية ، وأساليب القرآن الكريم الذي يلجأ إلى طرق خاصة في الاقناع والتوجيه ، ولا ريب أن أداء هذه المراسيم الدينية ، وقراءة النصوص ، والأدعية المأثورة لها نظمها الصوتية ، التي تحرك المشاعر ، والوجدان .

وهناك تعبيرات شائعة لدى الناس يستمدونها من ايمانهم بخالقهم ، ويحيطونها بهالات الإكبار الذي ينبعث من الاحساس الديني كأساليب القسم وتعويذ الأطفال بآيات الكتاب الكريم ، والأساليب الشعبية المستمدة من الدين مثل (اسم الله عليك — باسم النبي حرسك) .

ولو تتبع الباحث اللغوي تاريخ الألفاظ ، والتعبيرات الدينية المأثورة قديما حتى العصر الحديث ، لأمكنه أن يقف على تاريخ التطور اللغوي الذي ينبعث من مشاعر دينية ، لاسيما ونحن نعلم أثر الدين في النفوس .

ولو درس الأسلوب القرآني دراسة فاحصة ، لأمكن ادراك كثير من الاتجاهات ، والمسالك اللغوية التي ينتحيها .

ونلمس في لغة الأساليب الدينية ، ميلا إلى الايقاعات الصوتية كالسجع ، والفواصل وتتابع الأصوات ، وتنغيم الكلام .

ولو تركنا الدين الإسلامي إلى غيره من الأديان الأخرى لوجدنا الطقوس الدينية التي تسلك مسالكها ، فلاتزال الكنيسة تستخدم التعابير القبطية التي يرددها بعضهم دون فهم[22] .

ولاشك أن كتابات المسيحيين باللغة العربية تحول الأساليب ، ومفهوم الألفاظ العربية ، حسب الاتجاهات التي يلجأون إليها ، فلهم عرفهم في الاستعمالات اللغوية ويمكن ملاحظة ذلك من أساليب كتاباتهم الدينية ، وذلك أيضا يغير من ألفاظ اللغة ، وتراكيبها ومفاهيمها فيخضعها لما يريدون .

4 — اللغة والطبقات الاجتماعية :

يضم كل مجتمع عناصر بشرية مختلفة ، تعيش في المدن ، والقرى ، وفيها الزراع والصناع والارستقراطيون ، والفقراء ومتوسطو الحال وفيها الآمرون والعلماء والمثقفون ، كالطبيب والمهندس والمدرس ، وعالم الدين ، ورجل القانون ، والأديب وغيرهم .

ولكل من هذه الطوائف خصائصها ، في نشأتها ، وطريقة حياتها ، وعاداتها وتقاليدها ، ومستواها الاجتماعي ، ولذا تستخدم اللغة استخداما مستمدا من البيئة والأعمال التي تزاولها .

وتعرف هذه اللهجات ذوات الطوابع المتميزة بـ(اللهجات الطائفية) أو (الطبقية) أو (الاجتماعية) ، كما يسميها علماء اللغة[23] .

فالمشتغلون بالزراعة لهم لهجتهم الخاصة ، المستمدة من بيئتهم وعملهم ، وما يتصل به من آلات ، وأدوات .

ففي (اللتوانية) — وهي لغة شعب زراعي — خمس كلمات للدلالة على اللون الأشهب ، ولكن هذه الكلمات ليست من المترادفات لأن كلا منها تقال عن شيء خاص. بالأوز والخيل والبقر والحيوان الداجن مما عدا ما سبق

(21) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 74 — 94 بتفصيل أكثر.
(22) فندريس : اللغة 314 ، 315 .
(23) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 60 ، د. وافي : اللغة والمجتمع ص 148 .

وشعر الانسان – وفيها دلالة على (المبقع) أو (الأبلق) عدد من الكلمات بقدر ما يوجد فيها من الفصائل الحيوانية ، وهذا يستلزم قوما اخصائيين في تربية الحيوان[24] .

وللزراع – في مصر – لهجاتهم الخاصة التي تختلف باختلاف المناطق التي يعيشون فيها .

ويبدو ذلك في مظاهر حياتهم ، وسلوكهم اللغوي ، ولعل في هذا المثل المستمد من بيئتهم ما يؤكد هذه الحقيقة ، ففي بعض المناطق يقولون : (أردب ما هو لك ما تحضر كيله تتعفر دقنك ويلزمك شيله) .

ولكل حرفة أو صناعة ألفاظها الخاصة ، فللحدادين ، والنجارين ، والبحارة وغيرهم من الصناع وذوي الحرف لهجات متنوعة في كلماتها ، وعباراتها .

وتشتمل لهجات هؤلاء وأولئك على ألفاظ من اللغة العامة ، أو من لغات قديمة أو أجنبية .

ففي مجال الزراعة تحتفظ العامية المصرية – من اللغة القبطية – بأسماء الشهور ، والمواسم الزراعية ، وأسماء بعض الآلات الزراعية ، وفي العامية العراقية كثير من الكلمات البابلية ، والأشورية ، والفارسية المتعلقة بهذه الموضوعات .

وفي مجال الصناعة كلمات متوارثة ، أو منقولة من لغات أجنبية وبخاصة – بعد التطور الصناعي العالمي ، وقد دخل اللغة العربية كثير من الألفاظ الانجليزية ، والايطالية والألمانية ، واليونانية ، مما يتصل بالهندسة والميكانيكا والآلات الصناعية[25] .

وللطبقات الارستقراطية ، والفقيرة ، والوسطى ، لهجاتها التي تنبئ عن مكانتها الاجتماعية ، وأوضاعها الاقتصادية ، وطرق معيشتها ونظامها الاجتماعي .

يقول فندريس – عن اللهجات الارستقراطية الفرنسية – (في كل العهود التي كونت فيها الارستقراطية طبقة مغلقة ، تحيا حياة الصالونات وتعتز بجمال اللغة أدت هذه الحال إلى نشوء مفردات نبيلة أبعدت منها كل كلمة سوقية ، وهم وان استووا في العقل مع غيرهم ظلت لهم على غيرهم من سواد الناس ميزة التعبير بعبارات خير من عباراتهم ، وجمل أشهى إلى النفس)[26] .

وللطبقات الارستقراطية في مصر لهجاتها الخاصة ، ولكنها تقوم – أحيانا – على تشويه بعض أصوات اللغة العامة ، واستعمال كلمات وتراكيب أجنبية لاعتقادها أن ذلك علامة الرقي ، والتمدن[27] .

والطبقات الفقيرة والوسطى أكثر استقرارا أو اعتدالا في استعمال اللغة .

وقد يعرض لفرد أو أكثر من الطبقات الدنيا ثراء فجائي ينقلهم إلى مستوى مادي أعلى ، فيحاولون مجاراة الطبقة الراقية ، وإذا كانوا يستطيعون ذلك في المسكن والملبس ، وغيرهما من مظاهر الحياة المادية ، فمن العسير عليهم مجاراة تلك الطبقة في لهجتها ، فإن صعوبة التقليد الكامل تجعلهم عرضة للخطأ ، وتعود بهم إلى طبقتهم الأولى[28] .

وللطبقات الخارجة على نظام المجتمع – كاللصوص ، والمجرمين ، والأشقياء لهجات تستخدم طرائق معينة في استعمال كلمات اللغة العامة ، بنقلها إلى معان مجازية أو استعارتها لدلالات بعيدة عن مفهومها الأصلي ، أو خلق وابتكار مفردات وعبارات جديدة ، لمفاهيم يصطلحون عليها ، وربما لجأوا إليها لاخفاء جرائمهم ، وأوضاعهم الشاذة ، «ففي أمريكا – مثلا – يسمي اللصوص

(24) فندريس : اللغة ص 286 .
(25) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 105 – 108 بتصرف . وانظر : اللغة ص 283 وما بعدها .
(26) فندريس : اللغة ص 287 .
(27) انظر إلى استعمالهم : انارب مكان أرانب – زالم مكان ظالم – السبر مكان الصبر – مرسيه مكان شكرا ونحو ذلك .
(28) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 50 .

(الجواهر) باسم (الجليد) والجواهر المسروقة (الجليد الساخن)»[29] .

ولذا تسمى لهجتهم بـ(اللهجة السرية) أو (الكلام السري)[30] .

وقد فطن الجاحظ إلى لهجات الطبقات الدنيا في أيامه فهو يعرض للهجة المتسولين ، والمحتالين ، ولاسيما ما جاء في كتاب البخلاء من هذا الباب كما أشار الجاحظ إلى جماعة من هذه الجماعات التي ارتضت لنفسها أن تحيا حياة خاصة ، وهم اللصوص ، وقد كتب في الموضوع رسالة أسماها كتاب اللصوص ، وجاء ذكر الكتاب في مظان عدة[31] .

ومن أمثلة تلك اللهجات الخاصة القصيدة الطويلة التي كتبها في القرن الرابع الهجري الشاعر الماجن المتسول أبو دلف الخزرجي الينبوعي مسعر بن مهلهل ، واشتهرت باسم القصيدة الساسانية ، واختار منها أبو منصور الثعالبي قدرا لابأس به وشرح المصطلحات الخاصة بالمتسولين[32] .

وللعلماء والمثقفين — على اختلاف طبقاتهم ومناحي تعليمهم — من أطباء ومهندسين ومدرسين وعلماء وكتاب ، أنواع من اللهجات تتفق مع مستواهم الثقافي والعلمي .

وتبين لهجة المتكلم نوع تعليمه ، ووسطه الثقافي ، فالقانونيون لهم لهجتهم الخاصة ، وحيثياتهم التي يبنون عليها كتاباتهم وأحكامهم[33] ومثال ذلك حالة (المحضر) وحالة (القاضي) فهذان يستعملان في تسبيب حيثياتهما أو في تحريرها لغة بعيدة جدا عن اللغة الجارية[33] . ولغة المحاكم — بعامة — من هذا القبيل فكل مصطلح فيها اتخذ له دلالة نهائية على رجال المحاكم أن يحفظوها وأن يتبعوها دون أن يغيروا شيئا منها[34] .

وللأطباء لهجة يستعملونها عندما يحررون نشرة طبية ، وللعلماء لهجة عندما يعالجون مادة علمهم .

ويسمي علماء اللغة هذه اللهجات باسم اللهجات الفنية ، ففي كل فن علمي تستخدم كلمات اللغة العادية في معنى خاص ، كما يفعل علماء الطبيعة ، حين يتكلمون عن الكتلة أو (السرعة) أو (القوة) وأحيانا تخترع كلمات خاصة .

«واللغات الفنية تدين بوجودها إلى الحاجة للدلالة على أشياء أو أفكار لا أسماء لها ، في الاستعمال الجاري ، ولكنها أيضا ترجع إلى الحاجة للدلالة (بصورة علمية) أي بمصطلح دقيق يرفع كل لبس على أشياء مما تعبر عنه اللغة العادية تعبيرا جيدا»[35] .

ولرجال الأدب من شعراء ، وقصاص لهجة ذات خصائص ، والأديب في حاجة إلى أداة شخصية يعبر بها عما يوجد في ذكائه ، وحساسيته من عناصر خاصة ، ومن أمثلة اللهجات الأدبية لغة الملحمة اليونانية وفي الهند لغات أدبية على أساس ما من اللهجات[36] .

وللصحافة لهجتها الخاصة ، فالصحف الشعبية في فرنسا (لا تكاد تكتب غير اللغة المتكلمة مصبوغة بالصبغة

(29) نفسه ص 61 .
(30) فندريس : اللغة ص 314 ، 316 ، 320 .
(31) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 112 .
(32) الثعالبي يتيمة الدهر ط 1353 هـ — 1934م ، جـ 3 ، ص 332 ، 333 .
ود. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 112 — 114 .
(33) فندريس : اللغة ص 314 .
(34) نفسه ص 315 .
(35) نفسه ص 315 .
(36) نفسه ص 340 .

الأدبية ان قليلا وان كثيرا) على حين أن الصحف الكبرى تستخدم اللغة التي يستعملها خير كتابنا[37] .

ومعظم الصحف والمجلات المصرية – الآن – وان اصطنعت العربية الفصحى صورة فانها تخالفها مضمونا بادخالها كثيرا من الألفاظ والتراكيب الغريبة عليها وهي – بذلك – لها لهجتها الخاصة التي تخاطب الجماهير الشعبية .

ولكل من الرجال والنساء لهجة خاصة ، في المجتمعات التي تفرق بين الجنسين ، وتعزل أحدهما عن الآخر .

وكلما ازداد البعد ، والاتصال بين الجنسين أدّى ذلك إلى وضوح الفروق بين لهجة كل منهما .

أما في المجتمعات التي تخف فيها قيود الانفصال بين الرجل والمرأة فإن اللهجة تتقارب بينهما ، ولا يكون لها مظاهر إلا في اختلاف يسير في بعض الأصوات والمفردات والتراكيب كما يشاهد في معظم مناطق مصر الحديثة .

ولهذه اللهجات الطبقية خصائص عامة ، تشترك فيها جميعا ، فهي :

ا) تشوه أصوات بعض الكلمات ، وقوانينها الصرفية ، فلكل منها اتجاه صوتي في نطق الكلمات .

فقد يقع للعامية الخاصة أن تتبع بعض عادات في النطق تساعد على تمييزها .

ومن أمثلة ذلك نطق الطبقات الريفية ، والمدنية للأفعال (قال – جاء – يقدر) فينطقها بعض الريفيين (جال – ايجه – يقدر) وفي المدن والقرى المتأثرة بها (آل – جه – بأدر) .

وهذا في الحالتين تشويه لأصوات ، وبنية بعض الكلمات .

كما أن طريقة الأداء الصوتي مختلفة بين الريف والحضر ، بشتّى الطبقات ، – ويمكن – من خلال الاتجاه الصوتي التعرف على طبقة المتكلم الاجتماعية .

«والعامية الخاصة المستعملة في الأطراف الباريسية تحتوي على بعض الخصائص الصوتية التي تكفي للتعريف بطبقة المتكلم الاجتماعية»[38] .

وفي العامية الخاصة يستطيع المتكلم بوجه خاص أن يسمح لنفسه بنطق الكلمات في صورة مختزلة ، لأنه يخاطب عددا محصورا من المتكلمين كلهم ممهد الذهن لفهمه ، وكلهم تفاهم معه ، مقدما ، ومن ثم يجيء هذا العدد الضخم من حالات الحذف ، والاسقاط ، والتبسيط ، وحذف النهايات ، هذه العوارض الصوتية التي تجعل العامية الخاصة لا يفهمها إلا العارفون[39] .

ولذلك أمثلة كثيرة فكلمة (ولد) ينطقها بعض المصريين كاملة الأصوات ، هكذا ، وبعضهم (ول) وبعضهم (واد) وعلى هذا يختلفون في ندائه (ياولد – ياول – يواد) .

وغني عن البيان أن الاختصار في استعمال أصوات الكلمات يتم اعتماده على فهم أرباب الطبقة التي منها المتكلم .

2) تستعير كلمات من اللغة العامة ، وتستعملها استعمالا مجازيا .

فالكلمات العامة (مشغل – عمل – صنعة – تصنيف – عملية) تتخذ بالضرورة معنىً خاصا في أفواه الذين يستعملونها وفقا لنوع المهنة التي تستخدم فيها هذه الألفاظ ، فظاهرة التخصص المعنوي تلك هي أساس العامية الخاصة)[40] .

(37) نفسه ص 345 ، 346 .
(38) نفسه ص 317 .
(39) نفسه ص 319 ، 320 .
(40) نفسه ص 317 ، 318 .

والاستعارات ، والنقل في العامية الخاصة تبلى بسرعة ، وتحتاج إلى كثرة التجديد ، لأن الغرض من استعمالها هو توسيع شقة الخلاف التي تفصل بين العامية الخاصة ، واللغة المشتركة ، والمحافظة على بقاء هذا الخلاف ، فلا يدهشنا إذا أن تستهلك العامية الخاصة من الاستعارات أكثر مما تستهلك أية لغة أخرى»[41] .

3) تستمد كلمات من لغات أجنبية ، والمراد بالأجنبية كل ما ليس من اللغة المشتركة فيدخل في ذلك ما تنقله من اللهجات الخاصة الأخرى ، ومن كل اللهجات المتفرعة من اللغة المشتركة ، فضلا عن اللغات الأجنبية التي تتكلمها الأقطار المجاورة (فالعامية الخاصة الفرنسية على وجه العموم تحتوي على كلمات أجنبية قليلة العدد : عربية ، والمانية) وغيرها[42] .

وفي اللهجات الخاصة المصرية ألفاظ مستمدة من لغات أجنبية حسب الطبقة أو الحرفة التي تتطلبها .

4) قد تأخذ اللهجات الخاصة من الكتب وهو أمر فردي في غالب الأحيان ، وهو إحدى الوسائل الاصطناعية التي تدخل في تكوين العامية الخاصة ، ويذكرون أن فرجليوس مارو النحوي الذي عاش — على ما يظهر — في القرن الخامس بعد الميلاد اخترع لغة خاصة ، ظلت شائعة الاستعمال زمنا طويلا بين تلامذة المدارس الايرلندية ، وكانت تقوم هذه اللغة على تشويه الكلمات الجارية ، بأنواع من تضعيف المقاطع ، أو نبرها ، أو نقلها ، ويمضي الزمن تحورت ، وتمخضت عن لغة أخرى أمشاج سميت (لغة الشعراء) وهي عامية خاصة اختلطت فيها — على غير قاعدة — كلمات مستعارة ، من اللاتينية ، والاغريقية ، والعبرية ، وكلمات أهلية ألهمها الاستعمال أو استمدت من النصوص العتيقة[43] .

واللهجات الخاصة لا ينفصل بعضها عن بعض ، انفصالا تاما فللطوائف الاجتماعية صلات تقتضيها المصالح التي تجمعهم فـ«تنوع اللغات (اللهجات) يرجع إلى تعقد الروابط الاجتماعية ، ولما كان من النادر أن يعيش فرد محصورا في مجموعة اجتماعية واحدة ، كان من النادر أيضا أن تبقى إحدى اللغات دون أن تنفذ إلى مجموعات مختلفة ، إذ يحمل كل فرد معه لغة مجموعته ، ويؤثر بلغته على لغة المجموعة المجاورة التي يدخل فيها»[44] .

ولا تتكلم أسرتان متجاورتان لغة واحدة اطلاقا ، ومع هذا فإن لقاء الأسر المشترك يؤدي إلى الوحدة اللغوية بينهما ، وقد يعيش أخوان معا ، ولأحدهما مهنة تختلف عن مهنة الآخر ، فتميل لهجة كل منهما إلى طائفته التي ينتمي إليها ، وتدب عوامل الفرقة بين لسانيهما الا أنهما يتغلبان عليها ، بلقائهما اليومي ، ولو أن أحدهما انفصل عن الآخر في حياته ، أو أدى حدث ما إلى التفريق بينهما فقد يصبح لكل منهما لهجة تختلف تمام الاختلاف عن الأخرى[45] .

فاللهجات الطائفية تتداخل فيما بينها لعوامل الاتصال القائمة بين أصحابها فإذا قدر لاحدى اللهجات أن تنفصل عن الأخرى — لعوامل تدعو إلى ذلك فإن هذه اللهجة تصبح بعيدة عن أخواتها (ولذلك كانت في فرنسا لهجة الطبقات الدنيا من العمال واللهجات السرية لجماعات المتصوفين ، والرهبان ، ولهجات المجرمين ، واللصوص ، ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافا عن الأصل الذي انشعبت عنه ، وبعدا عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية ، وكذلك الشأن في انجلترا ، فلهجات اللصوص ، وقطاع الطرق ، والمجرمين الانجليز من أشد اللهجات بعدا عن اللغة الأصلية ، وعن المستوى العام للهجات الاجتماعية)[46] .

(41) نفسه ص 317 ، 318 .
(42) نفسه ص 318 .
(43) نفسه ص 319 — 321 .
(44) نفسه ص 306 ، 307 .
(45) نفسه ص 307 .
(46) د. وافي : اللغة والمجتمع ص 148 .